بقلم: إنعام رعد

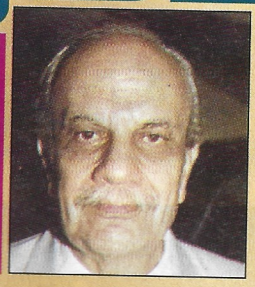

القطار المندفع رغم الاشارات الحمراء

من المفيد والضروري ونحن على وشك وداع العام ١٩٩٧ الزاخر بالمحطات المفصلية بالنسبة لمنطقتنا، ان نتوقف قليلاً امام قطار السياسة الاميركية المندفع، لرصد المتغيّرات التي لخّصها مؤتمر الدوحة الفاشل وقمة طهران الناجحة، ولنتساءل: هل وعت السياسة الاميركية العبر والدروس فانكبّت على اعادة النظر في نهج ثبت فشله؟ أم انها تعتبر ما حصل مجرد سوء حظ يمكن ان يتحسّن في ضربة مقبلة، فتستمر في سياسة جلبت على الولايات المتحدة خسائر كبرى وعلى المنطقة ويلات متتالية؟ هل تأخذ بالاعتبار الاشارات الحمراء قبل ان يتدهور القطار؟

ان العبرة الأولى التي كان مفروضاً ان تتوقف امامها الولايات المتحدة انّ ما حدث في الدوحة ثم في طهران ليس حدثين منفصلين لكل منهما أسباب فشله او نجاحه بل هما محطتان من عملية واحدة حيث قاطع اصدقاء واشنطن مؤتمر الدوحة وأقبلوا على قمة طهران، كأنما يوجّهون رسالة من الرياض والقاهرة وابوظبي وسائر العواصم التي اعتبرت واشنطن انها حليفة لها بأن الكيل قد طفح من انحيازها الاعمى لاسرائيل واستهانتها بالادنى من الحد الادنى من الحقوق العربية. وان هذه الحكومات عُرفت ليس بصداقتها للولايات المتحدة فحسب بل بدعمها للعملية السلمية وحرصها على انجاحها لكنها وجدت انها وصلت الى الطريق المسدود حيث تكشف السلم المزعوم عن أكبر عملية خداع اذ يستمر العدوان والاستيطان والاحتلال في ظل اتفاقات بلغت فيها التنازلات احياناً منحدراً لم يعد ممكناً الهبوط الى أدنى منه. فهل أدهى من ان تتحوّل قضية فلسطين عن حقيقتها كقضية تحرر وطني وحق تقرير مصير للشعب الفلسطيني على ارضه وعودة ملايين المشردين الى مجرد حكم ذاتي محدود تجري المشادة اذا كان المحتل الغاصب ينسحب من ٨ او ١٢ في المئة من الضفة المحتلة المفروض ان يجلو عنها كلها بما فيها القدس بعد ان اغتصب كل فلسطين، فلا يتصور عاقل انه يمكن بلوغ التنازل هذه الحدود ويبقى لهذا السلم المفخخ أي معنى!

ان العبرة الثانية ان ما حصل ليس مجرد غياب عربي عن مؤتمر وحضور عربي كثيف لمؤتمر آخر بالصدفة بل خيار واضح في ان لا تطبيع مع اسرائيل وفق النظرية الاميركية التي سوّقتها على غير طائل السيدة اولبرايت ومعاونوها، باعتبارهم التعاون الاقتصادي معزولاً عن وضع الاحتلال والاستيطان والعدوان، وهو مفهوم غريب ان تتعاون الضحية مع جلادها لخير ازدهار قوته واحتلاله وهيمنته. غير ان الشرق اوسطية التي تسللت الى المنطقة عبر قمتي الدار البيضاء وعمّان، وراوحت في مؤتمر القاهرة، وصلت الى طريق مسدود في مؤتمر الدوحة الفاشل. وقد واجهتها ظاهرتان: ظاهرة نزوع العرب مجدداً الى سوقهم المشتركة التي دفنوها في الادراج عقوداً فكادت تحلّ محلها سوق يسيطر عليها عدوهم. وظاهرة الممانعة والمقاومة الشعبية على امتداد العالم العربي للتطبيع والشرق اوسطية والتي عبّر عنها بصورة مجسّمة ومجسّدة في خط المواجهة تلك المقاومة البطولية في جنوبي لبنان وفلسطين وصمود سوريا البطولي. لقد التف الرأي العام العربي حول هذا الخيار ورفض كل التبريرات لأي علاقة مع اسرائيل.

وان العبرة الثالثة ان مؤتمر طهران باسقاطه، من حيث تكامله مع فشل مؤتمر الدوحة، الشرق اوسطية، فانه اسقط بحد ذاته، سياسة الاحتواء المزدوج ضد طهران تخصيصاً. وذلك بعد ان أدى الاحجام العربي الاجماعي عن تأييد الضربة العسكرية الاميركية لبغداد الى افشال ذلك الجانب من الاحتواء المزدوج.

فليس صحيحاً التوهم ان ما حصل في طهران كان مجرد حضور مؤتمر، بل كان فكاً لمحاولة عزلة ايران في المنطقة وتفكيكاً لقرار اميركي لعزلها، ووصلاً وتواصلاً عربياً معها، اذ ان طهران لم تكن مجرد مكان انعقاد لمؤتمر بل كانت حضوراً سياسياً من دورها البارز في التمهيد لانعقاد القمة بالانفتاح على العرب لا سيما عرب الخليج، الى التفاهم معهم على اخراج الاتفاق والبيان، أي على السياسة، الى اللقاءات الثنائية بين قياداتها وتخصيصاً مع ولي العهد السعودي الامير عبد الله بن عبد العزيز فوزير خارجية مصر عمرو موسى الذي أبدى ارتياحه لتطوّر العلاقات ايجاباً، فوزير خارجية الامارات وغيرهم ممن لم تكن بينهم وبين ايران علاقات ودية قبل عام تقريباً. فما حصل على عكس السياسة الاميركية تماماً: ابتعاد عن اسرائيل وتقارب مع ايران. وبالمحصلة كسبت سوريا صاحبة هذا النهج في التقارب العربي الايراني ووساطة العقد والتقارب بين العرب وايران.

اما السياسة الاميركية فقد سجلت انجازاً فريداً لا مثيل له في عالم الدبلوماسية. فقد جمعت اصدقاءها مع اعدائها ضدها!

وان العبرة الرابعة والتي فاجأت المتربصين بالمؤتمر ان بيانه الختامي أكد الى جانب الموقف الحازم ضد العدوان والاستيطان والاحتلال الاسرائيلي لهجة الانفتاح على العالم «وحوار الحضارات والثقافات والاديان والافكار الأخرى» ونصّ بحسم ووضوح على ادانة الارهاب، منتزعاً ورقة طالما استغلها ممارسو الارهاب الحقيقيون، لا سيما ارهاب الدولة كما وصف المؤتمر ممارسات اسرائيل. وتشمل ادانته كل صنوف الارهاب بما فيها المرتكب ضمن المجتمعات العربية، على نحو أعمق وأشمل انسانياً من الصورة المجتزأة المشوهة التي تعممها اسرائيل وحلفاؤها الاميركيون والتي تركز زوراً ضد المقاومة المشروعة للاحتلال التي حياها المؤتمر لأنها تنسجم مع القوانين الدولية وحقوق الشعوب في مقاومة محتلي اراضيها.

والمؤتمر اذ أكد مواجهة الهيمنة ميّز بينها وبين حوار الحضارات بل دعا الى الأخذ بما هو نافع من الحضارة الغربية.

لقد أسقط المؤتمر الحملة المغرضة الصهيونية الاستعمارية ضد الاسلام وقرنه بالارهاب وبالانغلاق، واعطى صورة عن جماعة منفتحة على العالم تطالب بحقوق شعوبها.

وحصل ذلك بتفاهم عربي - ايراني لم تكن تتوقعه تلك الدوائر التي خسرت هذه الورقة التي طالما وظفتها في غير موضع.

وبينما كان جيمس فولي الناطق بلسان الخارجية الاميركية يفتح كوة من الأمل الحذر مرحباً «باللهجة المعتدلة لا سيما بالدعوة للتعاون والحوار والتفاهم الايجابي بين الثقافات والاديان، وادانة الارهاب»، نقض مستشار الامن القومي صامويل بيرغر حتى هذا البصيص واطفأه لأن المطلوب ان يستمر القطار مندفعاً في الظلام رغم الاشارات الحمراء، وذلك باصراره على التقليل من اهمية المؤتمر ومن حضور اصدقاء اميركا العرب على نحو يوصف عادة بالهروب الى الامام. «فهذه قمة دورية تنتقل من عاصمة لأخرى... وكل ما في الأمر انها انعقدت هذه المرة في طهران» «ويجب التفريق بين الذهاب الى القمة في طهران والعلاقة مع ايران». هل هذا صحيح؟هل ذهاب الرؤساء وولاة العهد ورؤساء الوزراء ووزراء الخارجية الى قمة طهران مثل مقاطعتهم مؤتمر الدوحة ومن حضر كان بمستوى وكيل وزارة؟

وهل الذين ذهبوا الى قمة طهران لم يوطدوا او على الأقل لم يطوّروا العلاقات ايجاباً مع طهران؟ ولم كانت اللقاءات الثنائية الايجابية مع قيادتها؟

أتستمر المكابرة كأن شيئاً لم يحدث، وهل ان الاعلان الاستفزازي في أنقرة بعد الرجوع المبكر للرئيس ديميريل من مؤتمر طهران دون مبرر، وأنقرة تحتفي بضيفها اسحاق مردخاي، عن تحديد موعد للمناورات المشتركة الاسرائيلية - التركية - الاميركية، هو الرد على اجتماع واجماع خمسة وخمسين دولة ضد العدوانية الاسرائيلية، وضد الاحلاف معها واعتراض ضمناً على السياسة الاميركية وشدّها أزر هذا التحالف؟ هل هذه هي جائزة الترضية لافلاس سياسة بكاملها؟

ولقد عقب جيمس فولي على القمة لأنها خلافاً لقمم اسلامية سابقة غاب عن بيانها أي ذكر لعملية السلام. لكن أين هي عملية السلام؟ ألم تنقل منذ حين الى غرفة العناية الفائقة، وقد لفظت بعض اتفاقاتها انفاسها ويستمر الاصرار على عدم دفنها خشية الفضيحة؟! فالمسألة ليست ذكرها في بيان بل مصيرها على أيدي الذين أردوها.

وعلام تستمر تلك المسرحية الباهتة في لقاءات السيدة اولبرايت مع نتانياهو وعرفات. وجولات المندوبين الاميركيين في حوار حول «اعادة انتشار» جيش الاحتلال على مساحة مئوية محدودة بعد ان التهم الاستيطان معظم الارض - ولم يتوقف «لاستراحة قصيرة» كما طلبت اولبرايت - ويُصرّ الغاصب على اقامة أسوأ من نظام الابارتيد في الضفة بعد انهيار ذلك النظام في جنوبي افريقيا، مهوّداً القدس ومغتصباً كل فلسطين؟ وتستمر الطمأنة الاميركية على عادتها أنها «لن تفرض» على حليفها الاسرائيلي أي شيء مراعية حتى جنون نتانياهو في حرصها على حلفها مع اسرائيل!

ثم هل أرجأ وليم كوهين جولته الى المنطقة لاعادة النظر في سياسة الاحتواء المزدوج والضربة العسكرية، وذلك بفرض انتهاج سياسة أكثر حكمة؟ أم ان الارجاء موقت والسياسة الفاشلة مستمرة؟

وهل بعد ان لم تثمر جولات السيدة اولبرايت في المنطقة ولا حوارها مع دول الخليج، انتقلت الى افريقيا لتؤجج حرب السودان وتحرّض جيرانه عليه وتعلن على نحو مكشوف صارخ لم يبق له مثيل في التدخل بشؤون دولة أخرى، انها مع قلب الحكم ولو عسكرياً. وذلك بعد ان بذلت مصر جهودها لاحتواء الازمة وتعزيز المصالحة، وبدأ التقارب الطبيعي والمطلوب بين القاهرة والخرطوم.

وكأنما تلك السياسة التي خبأت من زرع الفتنة في الخليج تُصرّ على اذكاء الفتنة في السودان وبين مصر والسودان لأنها متمسكة بنهج فرق تسد الذي مارسه الاستعمار القديم حتى انقضى وانتهى ولم يفد ورثاؤه من مصيره.

حسبنا أن نختم هذا المقال بما كتب السير سيريل تاونسند (في ٩ كانون الأول/ ديسمبر الجاري) وهو عضو سابق في مجلس العموم البريطاني عن حزب المحافظين مستنكراً العقوبات على السودان التي اعلنتها السيدة اولبرايت بينما مفاوضات السلام تجري في نيروبي وكأن الهدف كان افشالها واعطاء ضوء أخضر لقرنق حتى يتشدد ولا يوقع اتفاق سلام.

وتساءل السير سيريل عن ذرائع اولبرايت حين ادعت ان السودان يعمل على زعزعة استقرار بلدان مجاورة بينما «قرنق يتلقى دعماً من ارتيريا التي لا يزال لديها قوات تتمركز داخل السودان.. وأرسلت اوغندا وحدة مؤللة الى داخل السودان». أليس هذا القلب للحقائق هو الذي يجري على ساحة فلسطين حين يصبح المطلوب «التعاون الأمني» لصيانة أمن قوات الاحتلال الاسرائيلي مع الاطاحة بكل الحقوق الوطنية لشعب فلسطين ومسخها الى أمتار في اعادة انتشار جيش الاحتلال وسط مستنقع منتشر من المستوطنات التي يعلن عن ضمّها الى كيانه والحاق أشلاء كيان فلسطين به أمنياً واقتصادياً؟

سياسة قهر الشعوب وتجاهل مصالحها وحرياتها وارادتها والانحياز الاعمى لاسرائيل سجلت اشارات انذار حمراء في الدوحة ثم في طهران. فهل تمضي السياسة الاميركية رغم هذا في قطار متدهور أم تلجمه لتبديل مساره نحو حوار الشعوب والوقوف على ارادتها واحترام مصالحها من دولة شعارها تمثال الحرية؟■